مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبر ٧: ٢٦–٢٨؛ ٨: ١–٢)

يا إخوةُ إنَّا يُلائِمنا رئيسُ كهنةٍ مثلُ هذا بارٌّ بلا شرٍّ ولا دنَس مُتَنَزِّهٌ عن الخطأةِ قد صارَ أعلى من السموات* لا حاجةَ له أن يُقرِّبَ كلَّ يومٍ مثلَ رؤساءِ الكهنةِ ذبائحَ عن خطاياهُ أولاً ثمَّ عن خطايا الشعب. لأنَّه قضى هذا مرَّةً واحدةً حين قرَّبَ نفسه* فإنَّ الناموسَ يُقيمُ أُناساً بهم الضُّعفُ رؤساءَ كهنةٍ. أمَّا كلمةُ القَسَمِ التي بعدَ الناموسِ فتُقيمُ الإبنَ مكمَّلاً إلى الأبد* ورأسُ الكلامِ هو أنَّ لنا رئيسَ كهنةٍ مثلَ هذا قد جلسَ عن يمينِ عرشِ الجلالِ في السموات* وهو خادِمُ الأقداسِ والمسكنِ الحقيقيِّ الذي نَصبَهُ الربُّ لا إنسانٌ.

الإنجيل

(لوقا ١٨: ٣٥–٤٣)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ بالقربِ من أريحا كان

أعمى أريحا

العدد ٤/٢٠٠٨

الأحد ٢٧ كانون الثاني

نقل جسد أبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر الثاني

في الترتيب الليتورجي الذي يرافقنا هذه الأيام محطات أو بالأحرى مراتب متى ارتقاها المؤمن يفهم هبة الاستنارة الآتية بفعل تحقق ملكوت الله على الأرض، بعدما عانت الخليقة بأسرها مرارة العمى منذ السقوط. فمن ظهور المسيح إلهاً بشهادة أبيه السماوي وروحه القدوس، إلى انتهاء زمان الإعلانات الرمزية باعتقال يوحنا آخر أنبياء العهد القديم (إنجيل الأحد بعد الظهور)، وصولاً إلى نصنا الإنجيلي لهذا اليوم حيث تنفتح، بفعل الإيمان، عينا الذي كان عائشاً في الظلام.

عندما حان، في تدبير الله، وقت خلاص الخليقة، كانت بأسرها تعاني العمى الروحي، يهوداً ووثنيين على السواء. اليهود أعماهم تمسكهم الحرفي المتحجر بالناموس، أما الوثنيون فكانوا بعد تائهين، بعضهم يسعى إلى الهداية وبعضهم مرتاح في ضلاله. العالم برمته كان إذا أعمى، وإن اختلفت الأسباب المباشرة لعماه. إنطلاقاً من هذه المقدمة نقول إن الأعمى في نصنا الإنجيلي لهذا اليوم يمثل الخليقة بأسرها، المتحجرة في فهمها المغلوط لله كاليهود أو الصانعة لها آلهة أصناماً تسيّر لها حياتها. وإذا قرأنا هذا الإنجيل بإزاء وضعنا الحالي، أي في قراءة تطبيقية عملية، يتضح لنا أننا غالباً ما نكون في العمى الروحي إن بسبب تمسكنا بسوء فهم للناموس الإلهي، وهنا نشابه اليهود الضالين، أو بسبب عبادتنا لأمور الدنيا مستمدين منها الحياة، لنكون كوثنيي تلك الأيام عابدي أصنام.

نعود إلى الإنجيل. الأعمى يصيح في إثر يسوع مسترحماً إياه «يا يسوع ابن داود ارحمني». في صرخة الأعمى أولاً إعلان إيمان بما أتت به الكتب قديماً، وبشخص يسوع الناصري الظاهر إلهاً، مسيحاً مخلصاً. أنت لا تطلب ولا تلتمس الشفاء والنور إلا ممن آمنت بأنه نبع النور والشفاء. هنا ثمة ما يستدعي التذكير وهو أن كثيرين ممن كانوا يعاينون آيات الرب بينهم وقوة تعاليمه بقوا غير مؤمنين، ورجل أعمى يأتي إلى يسوع من أجل الخلاص، فقط على ما سمعه من شهادات. لعل الإنسان

أعمى جالساً على الطريق يستعطي* فلمَّا سمع الجمعَ مجتازاً سأل ما هذا* فأُخبرَ بأنَّ يسوعَ الناصريَّ عابرٌ* فصرخ قائلاً يا يسوعُ ابنَ داودَ ارحمني* فزجره المتقدِّمون ليسكُتَ فازداد صراخاً يا ابنَ داودَ ارحمني* فوقف يسوعُ وأمَرَ أن يُقدَّمَ إليهِ* فلمَّا قرُبَ سألهُ ماذا تريدُ أن أصنعَ لك. فقال يا ربُّ أن أُبصِرَ* فقال لهُ يسوعُ أبصِرْ. إيمانُك قد خلَّصك* وفي الحال أبصرَ وتبِعَهُ وهو يمجِّدُ الله. وجميعُ الشعب إذ رأوا سبَّحوا الله.

تأمل

«فلمَّا قرُبَ سأله (الرب) ماذا تريد أن أصنعَ لك».

إذا كان ربنا برحمته ورأفته يريد منا أن نسأله فيجود علينا ونطلب منه فيعطينا أضعاف مطلوبنا وأن نقرع باب رحمته فيفتح لنا فما بالنا نتهاون في طلب الخلاص. وانه قبيحٌ بنا ومخالفٌ لمقاصدهِ تعالى أن نلتمس منه ما تلتمسهُ الخوارج فنطلب منه الزيادة في الأموال وكثرة الخصب والغلبة على الأعداء واشباه ذلك. لأن هذه الأمور تطلبها الغرباء عن شريعة المسيح. وأما االذين اشتراهم المسيح متى أحس بضعفه وشقائه يسهل عليه التماس الرحمة. يبقى أن يعي الإنسان أنه بلا الله أعمى شقي وكل معتقداته زيف وعبادة وثن.

يلفتنا في هذا الإنجيل أن الأعمى بقي يسترحم السيد بالرغم ممن حاولوا منعه، لا بل ازداد صراخاً. المثابرة والجد في امتدادنا نحو الله هما الأساس. هذا بالإضافة إلى خاصية وحميمية اللقاء بين الرب وطالبيه. يسوع يقف، يأمر بأن يؤتى إليه بالأعمى ويدخل معه في حوار شخصي. كلمة الله وابنه الوحيد ارتدى بشريتنا ليرفع عنها لعنة الناموس القديمة، لكي لا يعود الإنسان مسؤولاً عما سبقه من آثام، ولكي «ينير كل إنسان». لكن يبقى اقتبال هذا النور رهناً بالقرار الشخصي لكل إنسان (يو١: ٩-١٢).

«ماذا تريد أن أصنع لك»، يسأل السيد وإن بدا الجواب بديهياً. الإيمان الشخصي الكياني هو مفتاح خلاصنا، وهو في الوقت عينه سبيل المسيح إلى قلوبنا (أف ٣: ١٧). الرب يعرف مقصد هذا المسكين لا شك. ولكنه بالسؤال أعطاه الفرصة لإعلان إيمانه على الملأ، بشخصه وبقدراته الإلهية على السواء. «يا رب أن أبصر»، وكأننا به يقول «أنا أعرف أنك أنت هو القادر، أنت هو النور الذي به أستنير».

«أبصر، إيمانك قد خلّصك»، يجيب السيد الرب. معجزة الإبصار تأتي تثبيتاً لما أعلنه الأعمى من إيمان، وبتأملنا هذه الكلمات عميقاً نستنير معه. المعجزة تأتي إذاً دليلاً على قوة فعل الإيمان من جهة، وتأكيداً على استحالة اقتفاء مقاصد الله بلا النور الآتي من عنده. «نورُكَ وحقُكَ هما يَهدِيانني ويأتيانِ بي إلى جبل قُدسِكَ وإلى مساكِنِكَ»، يقول صاحب المزامير (٤٣:٣).

يلفت بعض الآباء انتباهنا إلى أن الأعمى آمن أولاً ثم أبصر، وليس العكس. فنحن علينا إذاً أن نفهم أننا بالإيمان نستحق ما نلتمس، لا نبني إيماننا على أساس ما يعطى لنا. بالعمل على إيمانه الشخصي يرتقي الإنسان إلى اقتناء ملكوت الله، أي تلك الحياة الدائمة مع الله وفيه، فيصبح ابناً للنور والنهار (١تسا ٥: ٥)، بل ويصبح نوراً للعالم كله كما هي أصلاً دعوته (متى ٥: ١٤). «نعم يا رب، أنا أعرف أنك قادر»، هذه هي لغة المؤمن الحق وسبيله إلى الخلاص متحداً بالمسيح فاديه.

بعد أن انفتحت في الحال عينا الأعمى، بكلمة يسوع، «تبعه وهو يمجّد الله». أعمال الله تظهر مجده، تظهر حضوره في وسط خليقته متنازلاً ليشفي أسقامها وليردّها إلى المجد المخصص لها منذ البدء. مَن يعي حضور الله بقربه لا يسعه إلا أن يتبعه، ولا يعود يرضى بغير أن يكون صوتاً ينادي بمجده.

الأقمار الثلاثة

الأيام التي تلي عيد الظهور الإلهي مليئة بالتذكارات الليتورجية للقديسين العِظام في الكنيسة. نحتفل مكرّمين رجالاً ونساءً لبسوا المسيح فشعّوا بالقداسة أنواراً تنير درب القداسة لكل مَنْ اعتمد على اسم الثالوث ولبسَ المسيح وقرر الوصول إلى الملكوت. نقيم تذكار القديسين غريغوريوس النيصصي (١٠ ك٢) وفيلوثاوس الأنطاكي (١٢ ك٢) وبولس الثيبي أول النساك (١٥ ك٢) وأنطونيوس أبو الرهبان (١٧ ك٢)

بدمه وفداهم بنفسه وأعدَّ لهم السماء مسكناً وأمرهم أن يتشبّهوا بسيد البرايا كلها على قدر الطاقة البشرية فينبغي أن يكون طلبهم موافقاً لإرادته لكي يُخوِّلهم المملكة السمويَّة والسعادة التي لا نهاية لها. فإن قلت وإذا كان الله المعطي رؤوفاً رحيماً جزيل العطاء بهذا المقدار كثير التحنن على شعبه فما الحاجة إلى تكرار الطلب ودوام السؤال. قلت ان ذلك لكي يتبين للمتهاملين انه يحكم بالعدل ويقسم المواهب بالإنصاف. لأن أرباب الممالك الأرضيَّة إذا قصدوا أن ينعموا على رجالهم الناصحين لهم والعاملين بمقتضى إرادتهم والذين يخدمونهم كما ينبغي فإنهم يأمرون باصطفاف العساكر واجتماع كبراء المملكة ثم يأمرون أولئك بالمكافحة ليظهروا شجاعتهم فيرى الباقون انه إنما جاد على المستحقين وأنعم على المستأهلين. وحينئذٍ يندمون على الكسل ولا يتظلَّمون. وإذا كان الذين يقصدون نوال الجوائز الأرضيَّة يجهدون ذواتهم ويكلّفون أنفسهم أتعاباً جسيمة كالمصارعين والذين يلعبون على الحبال والذين يتناضلون بالسهام والذين يتبارزون في السباق والذين يحملون الأثقال الكبيرة والذين

وأثناسيوس وكيرللس الإسكندريين (١٨ك٢) ومكاريوس المصري ومرقس الأفسسي (١٩ ك٢) والبار أفثيميوس المتوشح بالله (٢٠ ك٢) ومكسيموس المعترف (٢١ ك٢) وغريغوريوس اللاهوتي (٢٥ ك٢) وافرام السرياني والبار بلاديوس (٢٨ ك٢)، والقديسات دومينيكية (٨ ك٢) وتتيانا (١٢ ك٢) وأكساني (٢٤ ك٢)، والبار كسانفودوس وزوجته ماريا وولداه اركاديوس ويوحنا (٢٦ ك٢). إنها أغنى الفترات في السنة الطقسيّة للتأمل في القداسة والإحتفال بها.

هذه الأعياد تتوَّج في الثلاثين من كانون الثاني بتذكار جامع للأقمار الثلاثة، رؤساء الكهنة باسيليوس الكبير رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك، وغريغوريوس اللاهوتي أسقف نزينز ثم رئيس أساقفة القسطنطينية، ويوحنا الذهبي الفم الأنطاكي رئيس أساقفة القسطنطينية. تسمّيهم الكنيسة الأقمار الثلاثة كونهم أناروا المسكونة بتعاليمهم: «هلمَّ بنا لنلتئم جميعاً ونكرّم بالمدائح الثلاثة الكواكب العظيمة للاهوت المثلث الشموس الذين أناروا المسكونة بأشعة العقائد الإلهية، أنهار الحكمة الجارية عسلاً، الذين رووا الخليقة كلها بمجاري المعرفة الالهية...» (طروبارية العيد).

القديس باسيليوس الكبير (+٣٧٩) كان رجل كنيسة مفكراً وراعياً رؤوفاً ومحامياً عنيداً عن الإيمان القويم وصاحب منهج نسكي. التقى صديقه القديس غريغوريوس اللاهوتي في جامعة أثينا حيث درسا الأدب والفلسفة والخطابة. بعد فترة من النسك معاً انصرف باسيليوس إلى الدفاع عن ألوهة المسيح كما أقرّها المجمع المسكوني الأول. وعندما صار أسقفاً حثَّ صديقه غريغوريوس لقبول الأسقفية والدفاع عن الإيمان القويم. أسس الأديار الكثيرة والمستشفيات داخلها، وهو يُعتبر رائداً في تأسيس الرهبنات النسكيَّة العاملة.

القديس غريغوريوس الكبير (+٣٨٩) كان رجلاً شفافاً، صوفياً وشاعراً. لمع لاهوتياً كبيراً، إذ ان عظاته عن الثالوث القدوس، التي ألقاها في جماعة صغيرة من المؤمنين في القسطنطينية حين كانت الآريوسية في أوجها، تبقى لغاية اليوم أساساً للاهوت الأرثوذكسي.

أما القديس يوحنا الذهبي الفم (+٤٠٧) فكان واعظاً نارياً. لُقب بالذهبي الفم بسبب موهبته الخطابية الإستثنائية، خاصة في تعاليمه عن الحياة المسيحية الحقَّة، وبسبب نضاله النبوي ضد الظلم والشر واهتمامه بالفقراء، وبسبب مواقفه الشجاعة أمام مَن يخون إنجيل المسيح خاصة أصحاب النفوذ والقادة. مات منفياً عن كنيسته عام ٤٠٧.

أحاط بالأقمار الثلاثة مجموعات صغيرة من المؤمنين ومن الأهل الذين عاونوهم وألهموهم في عملهم. والدة باسيليوس إميليا وجدته مكرينا وشقيقته مكرينا وشقيقه غريغوريوس النيصصي هم من قديسي الكنيسة كما هي حال والدة غريغوريوس نونا التي رثاها في يوم دفنها فقال انها هي التي زرعت فيه الرب يسوع. هناك أيضاً القديسات ثيوسيبيا وجورجونيا أختا غريغوريوس، وأنثوسا والدة الذهبي الفم إلى جانب أولمبيا التي أرسل لها يوحنا رسائله في آخر حياته. إذاً، لم يكن هؤلاء الأساقفة، اللاهوتيون والوعَّاظ، لوحدهم في جهادهم، بل

يروّضون السباع والخيل يحتملون هذه المشقّات لكي ينالوا الجوائز القليلة والمديح الباطل. وكذلك الحكماء والفلاسفة فإنهم يجهدون ذواتهم ويتكلفون سهر الليل وصيام النهار ويتوحدون في الخلوات البعيدة ويهجرون التنعم واللهو واللذّات ويزعجون أفكارهم في تحقيق المسائل وإنشاء المصنفات. وكل ذلك ليظهر فضلهم بين الناس وينالوا حسن الصيت والكرامة.

فيا للعجب من الذين وُعِدوا بملك السماء وسعادة الأبد والقيام لدى منبر المسيح وأخذ الأكاليل النورانية كيف لا يهتمون ولا يجاهدون في تحصيل هذه الجوائز العظيمة. وما أعظم رحمة سيدنا فإنه لعلمه بقصر أيامنا وإننا بعد الموت لا نجد فرصةً نتوب فيها عن ذنوبنا يُنهض عزائمنا تارةً بالمثال وتارةً بالتنبيهات. ويَعِدنا تارةً ويتوعّدنا أخرى. ويُرغّبنا في الطلب بقوله إذا كنتم أنتم الذين تتقلبون بين الضرورات يحملكم حبُّ الأولاد المطيعين لكم، الطالبين منكم على أن تمنحوهم أفضل مما يطلبون، فكم بالأحرى أبوكم السماويُّ القادر على كل شيء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

كانوا نتاج جماعة مؤمنة تقية ومُحبّة للمسيح.

حين نتأمل في حياة وأعمال باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا نعي أكثر وأكثر ما تستطيع مجموعة صغيرة من المؤمنين القيام به من أجل قيادة أبناء الكنيسة نحو القداسة وخلاص نفوسهم. كما نرى انه لا يمكن لأحد أن يعيش منعزلاً عن الآخرين، حتى ان أعظم القديسين يحتاجون إلى قديسين آخرين ومؤمنين كي يلهموهم ويشجعوهم ويدعموهم في خدمتهم. نرى أيضاً ان العلم والذكاء غير كافيين لوحدهما إن لم تكن عقول الناس مكرَّسة لله وللحكمة والحقيقة الإلهية، وكذلك قلوبهم ونفوسهم وإرادتهم. لقد كان الأقمار الثلاثة رجال نسك صارم وصلاة حارة دائمة. لقد كانوا رجال كنيسة يمارسون ما يعظون به قبل أن يتفوهوا به، مستعدين لتحمُّل الصعاب والاضطهاد لأجل كلمة الله الذي أتى إلى العالم لا ليعظ بل ليتألم ليخلص العالم.

لقد كان الزمن الذي عاش فيه الأقمار الثلاثة رديئاً، وربما أسوأ من زمننا نحن. واستطاعوا اجتيازه متكلين على الله بمؤازرة رجال ونساء أتقياء. بسبب هؤلاء القدماء حُفظت الكنيسة وحفظ الإيمان إلى يومنا هذا. السؤال هل سنحافظ عليه ونورثه لمن هم بعدنا؟

الإنسان هو صورة الله

ماذا كان يعني الكتاب المقدّس بالقول: «إنّنا خلقنا على صورة الله».

علينا الرجوع إلى الله لنفهم مراد الله وسرّه العظيم. وحينئذٍ لن يتبادر إلى ذهننا أنّ الصورة التي عناها الله في الفصل الأول من سِفر التكوين هي صورة جسديّة. فالصورة الجسدية هي صورة إنسان يفنى. وحاشا لله أن يصوّر ما هو غير فانٍ بصورة كائن فان. ذلك انّ الجسد ينمو، ويذوب ويشيخ وينقص. فهو يمرّ في مراحل فناء مختلفة، وفي حالات تغيير متعدّدة. والله ثابت إلى الأبد، وصورته أيضاً لا تتغيّر ولا تزول أبداً.

لننتبه إلى حكمة الرب: «لنصنع الإنسان على صورتنا... وليتسلّط...».

هناك ترابط محكم بين صنع الإنسان على صورة الله وبين السلطان على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكلّ الدبابات الدابّة على الأرض. ومن الطبيعي انّ هذا التسلط لا يكون إلاّ بواسطة العقل. فجسد الإنسان هو أضعف من جسد الحيوان، ولا يقدر الإنسان التسلط على الحيوان بواسطة الجسد، بل بواسطة العقل.

تأمّل جيداً في كلام الرب: «خلق الله الإنسان على صورته؛ على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم». فالمرأة حسب فكر الله هي أيضاً خُلقت على صورة الله. فالرجل والمرأة يتشابهان بالطبيعة، وبالفضيلة وبالمكافأة وبالقصاص. فلا تقل المرأة اني ضعيفة؛ فالضعف هو ميزة الجسد، أمّا القوّة فهي ميزة النفس.

الكتاب المقدّس يذكر دوماً الرجل ولا يذكر المرأة إلاّ قليلاً. فهل هذا نبذ للمرأة وحطّ لكرامتها؟ حاشا. إنّ الطبيعة هي واحدة عند الرجل وعند المرأة، ولذلك أعمالهما هي واحدة أيضاً. والقصاص هو واحد. والكتاب المقدّس يذكر الرجل لأنه يريد تسميّة الكل باسم الجزء المهم.

القديس باسيليوس الكبير

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb